التمدن والمدن الأولى في الأردن

زيدان عبدالكافي كفافي

ملخّص: يهدف هذا البحث لإلقاء الضوء على بداية نشوء البلدات والمدن في الأردن؛ ابتداء من منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وحتى بداية العصور الحديدية (نحو ٣٦٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.). كما أنها تبحث في التمدن والمدنية التي ترتبط بوجود المدينة، إذ جادل بعض الباحثين (منهم: Savage, S. H.; Falconer, S. E. and Harrison, T. P) في أن منطقة جنوبي بلاد الشام لم تشهد لا ظهورًا للمدن ولا للدول خلال العصر البرونزي المبكر (نحو ٣٦٠٠ - ٢٠٠٠ ق. م.). ولمناقشة ذلك، كان لا بد من الرجوع لما نشر من تفسيرات حول نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في عدد من المواقع المؤرخة لفترات العصر البرونزي المبكر، مثل: جاوه، وجبل المطوق، وخربة الزيرقون، وخربة البتراوي، وباب الذراع؛ ومواقع أخرى من العصور البرونزية المتوسطة والأخيرة، مثل: إركيس، وطبقة فحل وتل أبوالخرز وتل زرعا. ولأن المجال لا يتسع لدراسة كل موقع بإسهاب؛ تقدم هذه الورقة معلومات موجزة حول بعضها، وتذكر أخرى مجرد ذكر. كما تُنبّه أن مفهوم المدينة، وتعريفها، لا يجب أن يكون متطابقًا بين جميع مناطق الشرق الأدنى القديم وبلدانه؛ بسبب نشوء المدن في بيئات تختلف اختلافًا كبيرًا عن بعضها بعضًا. كما أشرنا إلى أنه كان هناك تطورات فكرية، واقتصادية، واجتماعية وسياسية بين المجتمعات التي عاشت من منتصف الألف الرابع ق. م.، وحتى نهاية الألف الثاني ق. م.؛ وقد تبع القرية، والبلدة، والمدينة–الدولة في الأردن ظهور ما يعرف باسم «الدولة الوطنية»، مثل: العمونية، والمؤآبية، والأدومية.

كلمات مفتاحية: الأردن، تمدّن، بلدة، مدينة، دولة.

***Abstract*:** *This article aims at shedding light on the urbanization and the first towns and cities founded in Jordan during the Bronze Ages in general (ca. 3600 - 1200 BC). In addition, it discusses the claim published by archaeologists arguing that there were neither cities nor states during the Early Bronze Age in the south of the Levant. To explain, the results of several archaeological conducted studies at sites in Jordan such as Jawa, Jebel Mutawwaq, Khirbet ez-Zeiraqoun, Khirbet Batrawi and Bab edh-Dhra' are given as examples amongst other Early Bronze Age sites. Other Middle (ca. 2000 - 1550 BC) and Late Bronze Age (ca. 1550- 1200 BC) city-states such as er-Rukais, Pella, Tell Abu al-Kharaz, and Tell Zir'a were mentioned. Moreover, in identifying the earliest towns and cities founded in the Ancient Near East, scholars must take into consideration the difference of the environment as a factor of change and development. Thus, there is a big difference of the geographic location and the environment of south Mesopotamia rather than that of the Black Desert, the high-ranges and the Jordan Valley regions of Jordan. To argue, it has been assumed by the author that there was a gradual social, economic and political development and change through the prehistoric and the Bronze Ages. And towns, cities and city-states appeared in Jordan from the Middle of the fourth millennium through the third and second millennium BC. Then, they were followed by independent political identities (Ammon, Moab and Edom), which were larger than the city-states.*

مقدمة

ما دفعني لكتابة هذا البحث هو ما نشره عدد من الزملاء الباحثين الآثاريين الأمريكيين تحت عنوان:

Savage, S. H.; Falconer, S. E. and Harrison, T. P. 2007; The Early Bronze Age City States of the Southern Levant. Neither Cities nor States. Pp. 285-297 in T. E. Levy, P.M. Michele Daviau, R. W. Younker and M. Shaer (eds.), Crossing Jordan. North American Contributions to the Archaeology of Jordan. London: Equinox.

جاء في هذا المقال أن منطقة جنوبي بلاد الشام (الأردن وفلسطين) لم تصل إلى حالة التمدن، ولم تظهر فيها الدول الوطنية السياسية (National States) إلاّ مع بداية العصر الحديدي، أي نحو ١٢٠٠ ق. م.، وهذا بالطبع يتماشى مع ما ذُكر في الرواية التوراتية. وبناء عليه، قرر الباحث أن يُقدِّمَ عرضًا عن المدن التي ظهرت في الأردن بشكل خاص خلال العصور البرونزية (نحو ٣٦٠٠ – ١٢٠٠ ق. م.)، لعل هذا يكون كافيًا لإقناع القارئ بوجود مدن في تلك الفترة من تاريخ الأردن.

يجادل كل من سفج وفالكنر وهاريسون (٢٠٠٧) أن دراسة نماذج الاستيطان البشري خلال العصور القديمة تساعد الدارسين في التعرف على المتغيرات، والتغيرات الاجتماعية خلالها. إن إعادة بناء أو تصور كيفية أو طبيعة الأحوال السياسية في الفترات السابقة لمعرفة الكتابة تعتمد أيضًا على دراسة نماذج الاستيطان في عصور ما قبل التاريخ. ويعني هذا المنهج، وبكل وضوح، ضرورة تعريف مصطلح «الدولة»، إذ إن السلطة في ذلك الوقت تمثلت بوجود مركز سياسي يتبعه بشكل ظاهر عدد من المستقرات الأخرى. وبناء عليه، فإن طبيعة الحياة السياسية عند المجتمعات السابقة لمرحلة الدولة «pre-state» تندرج تحت مصطلحات «المشيخة» أو «المشيخة المعقّدة». وهي بهذا تكون نوعًا من أنواع أشكال التحولات الاجتماعية التي تخلو من وجود مركز سياسي، ومن تدرّج مساحة المواقع التابعة لهذا المركزوعدد سكانها (Savage et al. 2007).

وكان موضوع «المدن في العصر البرونزي المبكر في الأردن» قد درسه جهاد علي أحمد الديري في رسالته للماجستير تحت هذا العنوان، المقدمة لقسم الآثار في جامعة اليرموك عام ١٩٩٩م.

وحتى يتم الاعتراف بوجود مدن ودول، يفترض القائمون على هذا المنهج وجود تطور في المواقع المسكونة، تم بشكل خط متصل، يصل بين مرحلتي «المشيخة» و«الدولة».

بناء على ما تقدم، فإن الوضع السياسي في منطقة جنوبي بلاد الشام خلال العصر البرونزي المبكر بشكل خاص –وعلى الرغم من وجود المواقع المحصنة (مثل موقع جاوه) الدالة على وجود سلطة– يخلو من وجود نظام سياسي؛ سواء بشكل «المشيخة» أو «الدولة».

هم يقولون في مقالتهم إن المجتمعات التي كانت سائدة في فترة العصرين البرونزيين المبكرين الثاني والثالث كانت مجتمعات هرمية، ولكنها غير متجانسة، مع أنها كانت ذات استقلالية سياسية واجتماعية، وكانت مكتفيه ذاتيًا من الناحية الاقتصادية؛ لذلك كانت قادرة على التكيّف مع بيئة عدم الاستقرار السياسي التي كانت سائدة في تلك الفترة (Savage et al. 2007) ورغم ذلك لم يطلق عليها هؤلاء الباحثون مصطلح المدينة أو المدينة–الدولة «city–state»، وهذا استنتاج غير واضح من قبلهم!

ومن المعلوم أن التفسيرات السائدة بين الباحثين الآخرين الذين يدرسون العصر البرونزي المبكر في جنوبي بلاد الشام تذهب لعكس ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون؛ بل وتؤكد أن تشكّل الوحدات السياسية في جنوبي بلاد الشام كان بشكل تراتبي، وممثلًا بوجود مراكز تمدن. وهذا التراتب كان بوجود ثلاثة أنواع من المواقع، مترتبة من الأكبر، فالمتوسط، فصغير المساحة «Three–tiered sites»؛ وبوجود مثل هذه الصفة، فإن ذلك يعني وجود دولة–المدينة، وبرأيهم أن هذا حصل مع نهاية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المبكر (Kafafi 2011). كما أن هناك رأي آخر يقول إن وجود دولة–المدينة خلال العصر البرونزي المبكر تمثل بوجود عدد من المواقع الصغيرة، متماثلة في مساحاتها، وعدد

سكانها، انتشرت فوق منطقة محددة جغرافيًا.

وكنا قد ناقشنا هذا الموضوع في موضع آخر، وعلى النحو الآتي:

Kafafi, Zeidan 2011; Neither Early Bronze Age Cities nor States in the South of the Levant. Another Perspective. Syria, Tome 88: 47-57.

وأثبتنا في هذا البحث وجود أدلة وقرائن خاصة من المسوحات الأثرية التي أجريت، بشكل خاص، في منطقة موقع خربة الزيرقون، ما يشير إلى بطلان ما ذهبوا إليه. ونقدم أدناه دراسة موجزة تهدف لدراسة كيفية الوصول إلى مرحلة التمدن في الأردن بشكل خاص، وإعطاء أمثلة على البلدات والمدن الأولى التي بدأت في الظهور فيه، ابتداء من منتصف الألف الرابع ق. م.، لكن يسبقها حديث موجز عن الوصول إلى حالة التمدن المرتبطة بظهور المدن الأولى بشكل عام.

التمدّن (Urbanization)

اختلف الدارسون والمشتغلون بدراسة الحضارة الإنسانية في تعريفهم لمفاهيم: الثقافة، والحضارة، والمدنيّة، (وما تعنيه هذه المصطلحات). وفي الغالب، نجد أن كثيرًا منهم يخلطون بين تعريف الحضارة والمدنية، ويستخدمون الكلمتين بالمعنى ذاته! علمًا أن المدنيّة هي مرحلة متطورة من الحضارة. وحتى نستطيع فهم هذه المصطلحات لا بد لنا من دراسة ماضي المجتمعات البشرية وما يمكننا التعرف إليه من خلال دراسة المخلفات الإنسانية من عمارة وقطع أثرية وبقايا حيوانية ونباتية وبيئة طبيعية، وتحليلها. وهذا يعنى بالضرورة محاولة معرفة أصول الإنسان وتفاعله مع البيئة التي عاش فيها، حتى وصل إلى مرحلة فكرية ومادية متقدمة (كفافي ٢٠٠٥: ٢٣– ٤٤).

لقد بدأ حال الإنسان [رجالًا ونساء] حياته على وجه الأرض بشكل بسيط، متسلِّحًا ببعض الأدوات البسيطة، والتي تطورت مع مرور الزمن لتصبح أكثر تعقيدًا وملائمة لطبيعة حياته وحاجاته اليومية، وجاء هذا التطور التقني تبعًا لتزايد الخبرات الإنسانية، والتي أخذت تتواءم مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية يومًا بعد يوم.

شهدت منطقة بلاد الشرق الأدنى القديم قبل أكثر من اثني عشرة ألف سنة الاستقرار في مخيمات ثابتة (مثل عين الملاحة ووادي الحمة ٢٧)، تبعها في النصف الثاني من الألف التاسع ق. م. توصل الإنسان لمعرفة الزراعة والاستقرار في أماكن ثابتة، تحولت إلى قرى زراعية مع مرور السنين (Bar-Yosef and Valla 2013). وهذا الأمر هو في رأينا السبب الرئيس في تعدد الثقافات، والدخول إلى الحضارة، ومن ثم إلى المدنية. ولقد بلغ الإنسان ذروة تقدمه في بلدان الشرق الأدنى القديم عندما استطاع سكان وادي الرافدين ووادي النيل خلال النصف الثاني من الألف الرابع ق. م. التوصل لمعرفة الكتابة، وبذلك نقلوا المجتمعات البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية. ورافق هذا الأمر التحوّل الكبير الذي حصل في طبيعة المجتمعات البشرية، من حيث الانتقال لمرحلة الدولة أو دولة المدينة.

تعني كلمة «تمدَّنَ» باللغة العربية الشخص الذي تخلّق بأخلاق أهل المدينة، وأما باللغة الانجليزية فإن كلمة (Urban) الذي تعنى تمدن فهي مشتقة من كلمة (Urbs) اللاتينية ومعناها بلدة (كفافي ٢٠٠٥: ٤٥). وهنا نرى أن الوصول للمدنية لم يكن فقط بسكنى الناس الدائم في المدن، وإنما أيضًا بتخلقهم بأخلاق تختلف في طبيعتها عن غيرهم من سكان القرى والمخيمات، وكذلك وصولهم إلى ممارسات إنسانية غير ملموسة؛ وبخاصة في النواحي السياسية، والاقتصادية، والعقائدية، والثقافية، والفكرية. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه التحولات والإرهاصات بدأت مع بداية الاستقرار الدائم في مخيمات ثابتة وقرى في عصور ما قبل التدوين (كفافي ٢٠٠٥: ١٢٥).

ولا بد من توافر شروط كثيرة حتى وصل الإنسان إلى هذه المرحلة الحضارية المتقدمة؛ منها: التغير

الاجتماعي، وظهور الطبقات الاجتماعية الناتجة عن وجود فائض في الإنتاج الناتج إما عن الزراعة والصناعة أو التجارة؛ ما أدى إلى غنى طبقة من الناس في المجتمع. وقد أدى ذلك إلى خروج هؤلاء في تفكيرهم عن تأمين لقمة العيش لأنفسهم، والذهاب إلى التفكير بأمور الخلق والخالق؛ فكانت هناك الآلهة، والمعابد التي بنيت لها، ومع معرفة الكتابة استطعنا الاستدلال على أسمائها. وباعتقادنا أنه ومن رحم المعبد خرجت دولة – المدينة، والتي ازدادت قوتها واتسع نفوذها ليشمل في مرحلة لاحقة مجموعة من المدن والبلدات والقرى والتي اتخذت من إحداها عاصمة ومكانًا للقيادة والجيش ومركزًا للعبادة، فكانت الدولة الأم (كفافي ٢٠٠٥: ٢٤٩–٢٥١؛ ٢٦٠–٢٦١).

ومن المعروف أن من شروط الوصول للمدينة هو وجود فائض في الناتج الزراعي، الذي يكفي لتزويد مجموعة أخرى من الناس متخصصين في أعمال أخرى، مثل الصناعات، ولا ينتجون ما يحتاجون من طعام. على أية حال، لقد تعرضت هذه الفرضية للانتقاد؛ إذ يرى بعض الباحثين أنه من غير المعقول أن يقوم المزارعون بزيادة إنتاجهم رغبة منهم في إطعام أناس آخرين، بل إن الزيادة قد جاءت تلبية لرغبات المزارعين في تحسين أوضاعهم المعيشية والحصول على أدوات جيدة تتناسب وحاجاتهم اليومية. لكن لو افترضنا أن هذا المجتمع كانت تحكمه سلطة دينية أو سياسية، أليس من المفترض أن تقرر هذه السلطة ماذا تفعل بشأن هذا الفائض؟!

إننا لا نقول إن فائض الإنتاج هو كل شيء في الوصول إلى مرحلة المدنية، ولكنه كان أحد العوامل المهمة في ذلك. إذ إن الفلاح على سبيل المثال اضْطُر إلى زيادة إنتاجه ليستطيع أن يوفر لنفسه ولعائلته الحاجات الكمالية، مثل أدوات الزينة. وحتى يستطيع الحصول على أدوات الزينة، عليه أن يدفع مقابلها لصانعها، والدفع يكون بمقايضة كمية من فائض الإنتاج الزراعي. وحتى يتوافر لديه فائض من إنتاجه الزراعي، يصبح بحاجة إلى فلاحة وزراعة مساحات أوسع؛ ما يتطلب منه تشغيل أيدي عاملة أكثر.

أما بخصوص ظهور المجتمع المتمدن، وهو مجتمع مركب (معقد) (Complex Society) نشأ بسبب غنى الناس نتيجة للتجارة (كفافي ٢٠٠٥: ٢٢٨–٢٣٢). فلقد اعتمد صاحب هذه الفرضية على المعلومات المنشورة حول المدن الأولى في جنوبي وادي الرافدين. وتفترض هذه النظرية أن تطور الزراعة البعلية والمروية، وتدجين الحيوانات في سهول وادي الرافدين الخصبة، أدى إلى تحقيق فائض في الإنتاج؛ وبما أن منطقة جنوبي الرافدين تخلو من المواد الخام التي يحتاجها سكان مواقع هذه المنطقة لتصنيع أدواتهم وأوانيهم، فقد اضطروا للاتصال بالمناطق المحيطة للحصول عليها؛ وهكذا حصل التبادل التجاري، وجمعَ الناسُ ثروات طائلة. إن تطور العلاقات التجارية بين المجتمعات المتباعدة، بشكل خاص، كان لا بد إلاّ أن يؤدي إلى ظهور المؤسسات الإدارية للإشراف عليها؛ ويرى بعض العلماء أن هذا الأمر أدى إلى نشوء الدول. إننا نرى أيضًا أن التجارة قد لعبت دورًا مهمًا في الوصول إلى المدينة، لكن ليس من المنظور نفسه الذي يراه الآخرون؛ إذ إن التبادل التجاري قد بدأ –كما نعلم– بين منطقة جنوبي بلاد الشام والأناضول، منذ العصور الحجرية الحديثة، أي منذ نشوء القرى الزراعية، وربما قبل ذلك.

وإضافة إلى هذا، فإننا نعتقد أن التقدم والتطور الاقتصادي والاجتماعي (Socio–economic) أدى إلى رفع مستوى المقدرة الفكرية والذهنية؛ وأدى ذلك –من ثم– إلى رفع المستوى المعيشي لدى الناس، وبخاصة في بلاد الشرق الأدنى القديم (كفافي ٢٠٠٥: ٢٢٨). إن المكتشفات الأثرية الحديثة تشير إلى معرفة الناس بتقنيات عالية ومتقدمة، وإلى وصولهم إلى مرحلة دينية متطورة تدرّجت من عصور ما قبل التاريخ وحتى العصور التاريخية، وإن العوامل الاجتماعية والاقتصادية والفكرية مجتمعة هي التي أوصلت الناس إلى مرحلة التمدن وبناء المدن.

وأما بخصوص الأردن، فقد ناقش عدد من الباحثين حديثًا قضية الانتقال من القرية إلى المدينة في منطقة جنوبي بلاد الشام، أي الوصول إلى مرحلة التمدن،

خلال العصر البرونزي المبكر؛ محاولين التعرف على أسباب الوصول إلى هذه الحالة وكيفيته، وهل حدثت عن طريق قادمين جددًا أو يعد تطورًا محليًّا طبيعيًا (Adams and Roux 2022). وكنّا قد أدلونا بدلونا في موضع آخر (كفافي ٢٠١١: ١٨٤- ١٩٠؛ ٢٠٠٦: ٣٩٣) حول هذا الأمر واقترحنا أن هذا الانتقال كان تطورًا محليًّا على الأغلب، رافقه دخول بعض الأقوام الجديدة للمنطقة، والتي أحضرت معها عناصر ثقافية وحضارية جديدة.

وعلى أي حال، نقدم تاليًا معلومات عن وصول الناس إلى حالة التمدن ونشأة المدن الأولى في الأردن، من خلال مناقشة نتائج الحفريات الأثرية التي جرت في الأردن، خلال العقود الأخيرة، بشكل خاص.

المدن الأولى في الأردن

تتميز المدينة بأنها «مكان مركزي يعيش فيه مجتمع مركب (Complex Society)، عدد أفراده كبير، لكنه مختلف بأعراقه وأجناسه واقتصاده وتنظيمه الاجتماعي» (كفافي ٢٠٠٥: ٢٣٢).

إن طبيعة الحياة في المدينة واختلافها عن حياة الريف والبادية جعلها عامل جذب عبر العصور، فحصلت الهجرات إليها وزاد عدد سكانها، وارتفعت مبانيها، واختلف المستوى المعيشي فيها؛ ما أثّر في التوزيع السكاني والمكاني في بلاد الشرق الأدنى القديم، عبر العصور المختلفة.

أطلق على الفترة بين نحو ٣٦٠٠ وحتى ١٢٠٠ ق. م. اسم «العصور البرونزية»، وشهدت بدايات نشوء المدن في بلاد الشرق الأدنى القديم، وإن كانت البداية تختلف من منطقة لأخرى. لكن هذه المرحلة تميزت عن سابقاتها من المراحل بمعرفة الناس للكتابة، وتأسيس المدن، ومن ثم استخدام البرونز (خليط من النحاس والقصدير). وتعني معرفة الكتابة الانتقال من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية، وكذلك تدوين الأحداث التاريخية. وإذا كان الناس في كل من بلاد الرافدين ووادي النيل قد عرفوا الكتابة خلال النصف الثاني من الألف الرابع ق. م.، فان أقدم الشواهد الكتابية المكتشفة في الأردن، حتى الآن، تؤرخ للقرن الخامس عشر ق. م.؛ إذ عثر على كسرتين من لوحين طينيين في موقع طبقة فحل منقوش عليهما بالخط المسماري (Bienkowski 1991: 135; Fig. 152). كذلك فإننا نعتقد أن بداية المدن في الأردن، وإن كانت تأخرت عن بداياتها في وادي الرافدين، إلاّ إنها حصلت نحو ٣٠٠٠ ق. م.، أو بعدها بقليل.

تعرض الأردن خلال العصور البرونزية، وبخاصة المتأخرة منها، للسيطرة الفرعونية المصرية، ولما كان الأمر كذلك، فإننا نجد أن الوثائق المصرية تتحدث، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، عن الأردن. وحتى نكتب تاريخ الأردن في تلك الفترة، لا بد من الرجوع والاستناد إلى تلك المصادر المكتوبة، إضافة لما عُثِر عليه من مكتشفات أثريه. وحتى لا نطيل الحديث فقد قسم العلماء العصر البرونزي إلى ثلاث مراحل هي:

(١) العصر البرونزي المبكر (نحو ٣٦٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)، ويقسم إلى أربع مراحل فرعية، هي على النحو أدناه:

١- العصر البرونزي المبكر الأول (نحو٣٦٠٠ - ٣١٠٠ ق. م.)

٢- العصر البرونزي المبكر الثاني (نحو ٣١٠٠- ٢٧٠٠/٢٨٠٠ ق. م.).

٣- العصر البرونزي المبكر الثالث (نحو ٢٧٠٠/٢٨٠٠ - ٢٤٠٠ ق. م.).

٤- العصر البرونزي المبكر الرابع (نحو ٢٤٠٠ - ٢٠٠٠ ق. م.).

(٢) العصر البرونزي المتوسط (نحو ٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق.م.).

(٣) العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.)

وقد سكن الناس في الأردن خلال جميع هذه المراحل ودون انقطاع، وقدَّموا للعالم نتاجًا حضاريهًا متميزًا.

أ. البدايات الأولى للمدينة في الأردن (البلدات): (العصر البرونزي المبكر الأول نحو ٣٦٠٠ - ٣١٠٠ ق.م)

يُشكِّل غياب الشواهد الكتابية من مواقع العصر البرونزي المبكر في جنوبي بلاد الشام، بشكل عام، والأردن، بشكل خاص، عقبة كبيرة أمام دارسي هذه الفترة! لكن غنى الأردن بالآثار المكتشفة المؤرخة لها ساعد كثيرًا في فهم الأوضاع التي كانت سائدة في ذلك الوقت. وكانت، وما تزال، المرحلة الانتقالية بين نهاية العصر الحجري النحاسي وبداية العصور البرونزية مدار بحث واستقصاء كثير من العلماء؛ فمنهم من رأى أن الوصول إلى مرحلة التمدن وبناء المدن في هذه الفترة قد جرى نتيجة لهجرة بشرية جاءت من الشمال، بينما يرى آخرون أن السبب في هذا يعود لعوامل داخلية وأخرى خارجية (Kerner; Kühne, Czichon and Kreppner 2008:155-166).

وإذا كانت الصفة العامة التي غلبت على المرحلة الأولى هي الاستمرار في السكنى في قرى صغيرة المساحة، وعلى شكل مجموعات بُنيت حول مصادر المياه الدائمة، وفوق أرضية خصبة تطل في أغلب الأحوال على الأودية (كفافي ٢٠٠٦: ١٢٢؛ Kafafi 2021a). ويجادل بعض الباحثين في أن بناء المدن لم يظهر إلا في المرحلة الثانية أو الثالثة في الأردن، إلا إن الباحث يرى أن البلدتين: جاوة، وجبل المطوق، تُعدّان البدايات الأولى لظهور المدن في الأردن، في تلك المرحلة المبكرة من العصر البرونزي.

يقع موقع جاوة في منطقة الحرّة البازلتية في شمال شرقي الأردن، على الحدود الأردنية السورية (الخريطة ١). أُسس الموقع في بداية العصر البرونزي المبكر الأول، وبنى سكانه أسوارًا للمدينة، كما جمعوا مياه الأمطار بواسطة بناء الخزانات والسدود التي أقاموها على وادي راجل، والأودية الفرعية، وهي تجمع مياهها

اللوحة ١: منظر عام لبلدة جاوه المؤرخ للعصرين البرونزي المبكر الأول (نحو ٣٦٠٠ - ٣١٠٠ ق.م.)، والمتوسط الأول (نحو ٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق.م.) (Bewely and Kennedy 2004; Müller-Neuhof 2020:Fig. 2).

من مياه الأمطار التي تتساقط فوق جبل العرب (جبل الدروز) في جنوبي سوريا (Betts 1998; 1991; Helms 1987; 1984; 1981; 1977; 1976;1975).

يظهر أن سكان جاوة الأوائل هجروه بعد مدة من سكناهم فيه، خلال العصر البرونزي المبكرالأول، ولم يرجع الناس للاستقرار فيه إلاّ مع بداية الألف الثاني ق. م. (العصر البرونزي المتوسط الأول)، إذ بنيت قلعة داخل أسوار الألف الرابع ق. م. (Helms 1981). وقد اكتشف الموقع من طريق الصدفة، وذلك عندما كان أحد المهتمين بالآثار يلتقط صورًا جوية للمنطقة خلال الثلاثينيات من القرن الفائت؛ إذ لاحظ صاحب الصورة وجود هذا الموقع فيها، ونظرًا لمساحته الكبيرة وضخامة مبانيه ظن أنه روماني التاريخ والصبغة. وبقي الأمر هكذا حتى الخمسينيات من القرن الماضي عندما قام بعض الباحثين بقيادة لانكستر هاردنج (مدير دائرة الآثار العامة الأردنية حينها) بزيارة للمنطقة بحثًا عن النقوش والكتابات الصفوية، وأعلن هاردنج أن الموقع يعود للعصر البرونزي القديم. ولم تُجْرَ في الموقع أية نشاطات أثرية حتى مطلع السبعينيات، وذلك عندما بدأ الباحث سفند هيلمز بإجراء حفريات ومسوحات في الموقعي وكشف النقاب عن أهميته كأحد أهم المواقع المؤرخة للنصف الثاني من الألف الرابع ق. م.؛ ولم يكتفِ هيلمز بالتركيز على دراسة الموقع وحده، فحاول

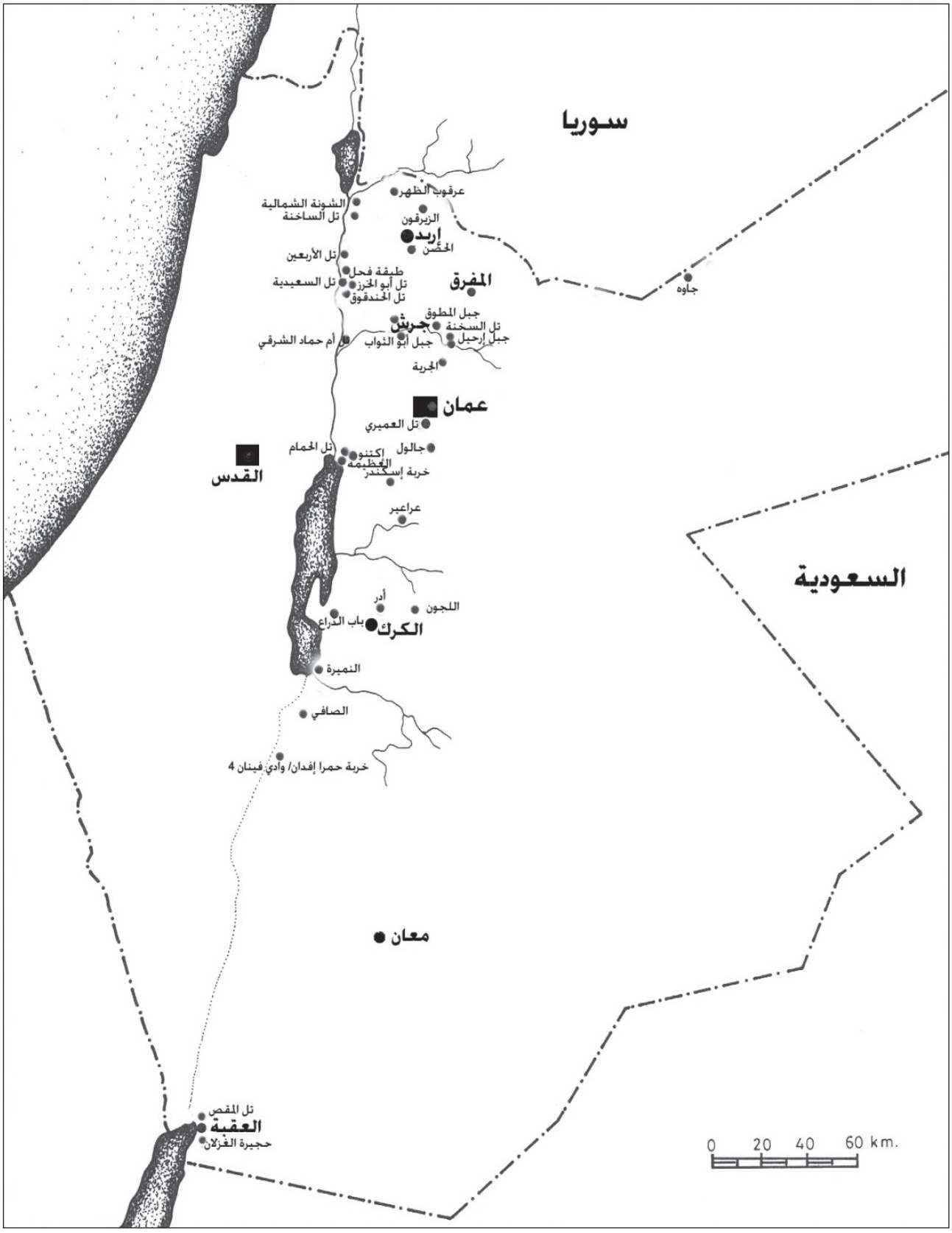

الخريطة ١: أهم مواقع العصر البرونزي المبكر في الأردن (رسم علي العمري).

فريق بريطاني دراسة المناطق المحيطة من خلال إجراء مسوحات أثرية، سجّل الفريق خلالها مجموعة من المواقع الأثرية الأخرى (Helms 1981; Betts 1991). لقد بُنيت بيوت جاوه وأسوارها وبواباتها من الحجارة البازلتية المتوافرة بشكل كبير في المنطقة، علمًا أن المُنقِّب يعتقد أن المداميك العلوية من الجدران بُنيت من اللبن الطيني. كما يظهر أن البيوت سقفت بألواح خشبية أو أعواد من القصب، وحُمل السقف على دعامات أو أعمدة خشبية ارتكزت فوق قواعد بازلتية (Betts 1991:123-125). وقد بُنيت بيوت جاوة بشكل مستدير، كما قُسِّمت المدينة إلى وحدات سكنية بفصلها عن بعضها بعضًا بواسطة مجموعة من الشوارع والأزقة. لكن، لم يُكشف النقاب حتى الآن في الموقع عن أي مبانٍ توصف بأنها ذات طابع ديني.

أحيطت المدينة بسور تخلله ثلاثة عشرة (١٣) بوابة، خمس بوابات منها في المنطقة العليا، وثمان في المنطقة السفلى من الموقع. وشكلُ السور إهليجي ومبنيٌّ من كتل حجرية ضخمة وضعت مباشرة فوق الصخر الطبيعي (اللوحة ١).

من هنا، نستطيع القول إن جاوة في جنوبي بلاد الشام، أخت حبوبة كبيرة في شمالها. لكن كل منها تختلف عن الأخرى، من حيث البيئة التي بنيت فيها، وطبيعة المخلفات الأثرية، وبخاصة إذا ما علمنا أن حبوبة كبيرة، شكلت جزءًا من حضارة الوركاء ذات الطابع الرافدي.

يعاصر موقع جاوة وربما يكون على السوية ذاتها من التقدم الحضاري، موقع جبل المطوق (اللوحة ٢)، الذي اكتشف أثناء المسوحات والتحريات الأثرية التي أجراها الباحث الإنجليزي هنبري- تنيسون خلال ثمانينيات القرن الفائت (Hanbury-Tension 1986; 1989). تبع هنبري -تنيسون قيام بعثة إسبانية بالتنقيب في الموقع بقيادة فرناندز- تريزيغويروس فيلاسكو (Fernandez-Tresguerres Velasco)، وتقوم الآن بعثة إسبانية-إيطالية مشتركة بإشراف كل من خوان رامون مونيز ألفاريس

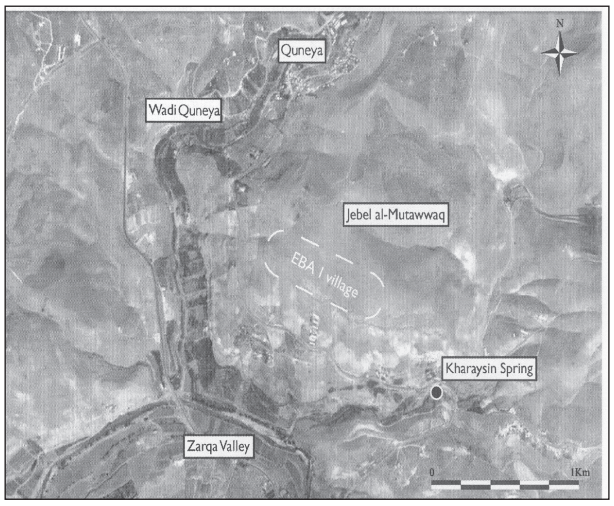

اللوحة ٢: خارطة تبين موقع جبل المطوق على وادي الزرقاء عن (Polcaro and Muñez 2017:Fig 1).

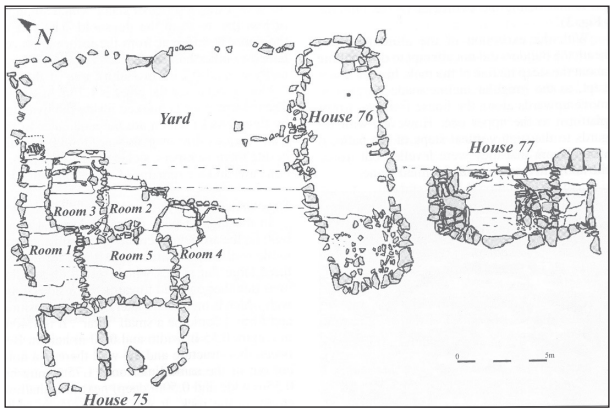

الشكل ١: مبنى المعبد (House 76) **وغرف مبنية من الحجر عن** (Velasco 2008:23)

(Juan Ramon Muñiz Alvarez) وأندريه بولكارو (Andrea Polcaro) بمتابعة التنقيب في الموقع (Alvares and Polcaro 2017: 435-444; Muñiz; Polcaro and Alvarez 2017; 2016). وكشفت أعمال حفريات عن بقايا معبد إهليجي المخطط، وبقايا عمائرية أخرى تدل على أن الموقع كان بلدة كبيرة خلال العصر البرونزي المبكر الأول (الشكل ١) (نحو ٣٢٩٠ - ٣٠٤٠ ق. م. حسب تاريخ الكربون الإشعاعي) (Velasco 2008: 33). وتحتل هذه البلدة مساحة قدرها ١٣ هكتارًا، وبنيت على ارتفاع يُراوح بين ٥٠٠ إلى ٥٥٠ مترًا فوق مستوى سطح البحر. ويمكن تقسيم المنطقة التي بُنيت فوقها البلدة إلى ثلاثة أقسام هي: الغربية، وهي المنطقة الأكثر انبساطًا

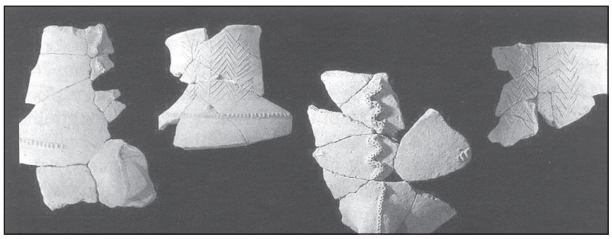

اللوحة ٣: كسر من جرار فخارية أضيف على جدرانها الخارجية حبال صلصاليه على شكل أفاعي، وتحزيز بعضها على شكل زقزاق،س وجدت في معبد العصر البرونزي المبكر الأول في موقع المطوق (Velasco 2008: 31; Fig.13) .

من السفح الجنوبي لجبل المطوق؛ والمركزية، وهي مطلة على وادي الزرقاء؛ وأخيرًا، الشرقية والمتميزة بانحدارها الشديد (Polcaro and Muñiz 2017:16-18; Muñiz and Polcaro 2017: 435-444).

وإضافة للنصب الحجرية (Dolmens) التي تغطي الموقع، تم التعرف على مبنى إهليجي الشكل (House 76)، عُثر بداخله على جرار فخارية، وكسر تخص جرار أخرى، مضاف إلى سطوحها زخرفة على شكل أفاعي (اللوحة ٣)؛ وبما أن الأمر هكذا، أطلق عليه المكتشف اسم «معبد الأفعى» (Velasco 2008: 23).

يحيط بالبلدة جدار بسيط البناء له بوابات تفتح باتجاه وادي الزرقاء، مبني من حجارة كبيرة الحجم تعلوها حجارة صغيرة، وتكثر في جهته الجنوبية الصخور الطبيعية، والتي كونت جزءًا من هذا الجدار. واستطاع المنقبون في الموقع التعرف على ما مجموعه ١٨٦ وحدة منزلية داخل سور وعلى كومة كبيرة من الحجارة يعتقد أنها كانت برجًا للمراقبة.

ب. المدن الأولى في العصر البرونزي المبكر الثاني والثالث (نحو ٣١٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م.)

اختلف الحال مع بداية الألف الثالث ق. م. في الأردن، وبخاصة في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر؛ إذ شهدت ظهور أوائل المدن فيه. ومن أفضل الأمثلة نذكر مواقع خربة الزيرقون/ بالقرب من إربد (Ibrahim and Mittmann 1994; 1989)، وخربة البتراوي/بالقرب من مدينة الزرقاء (Nigro 2008) (اللوحة ٤)، وباب الذراع في منطقة لسان البحر الميت (Rast 1981) وقد ازدهرت هذه المواقع في المرحلتين الثانية والثالثة. وكانت هذه المواقع محاطة بالأسوار وعثر فيها على معابد ومخلفات أثريه أخرى تدل على تقدم حضاري. ومن المعلوم أن بلاد الشرق الأدنى القديم وبخاصة حضارتي بلاد الرافدين وبلاد النيل شهدتا تقدما حضاريا هائلا في النصف الأول من الألف الثالث ق. م.، إذ عرفت الكتابة وتم تأسيس دولة الأمة والمدينة – الدولة والتحوّل من مجتمع القرية إلى مجتمع المدينة.

من هنا، نستطيع القول إن الأردن لم يتخلف عن الركب الحضاري في المنطقة، بل بنيت المدن في عدد من المناطق الجغرافية. كما دلت طبعات الأختام التي اكتشفت في موقع خربة الزيرقون على الاتصال الحضاري مع بلاد الرافدين (اللوحة ٥)، وعلى وجود الملكيات الشخصية في المجتمع.

اللوحة ٤: أسوار خربة البتراوي/الزرقاء من العصر البرونزي المبكر (بإذن من Lorenzo Nigro)

اللوحة ٥: طبعات أختام من موقع خربة الزيرقون (تصوير يوسف الزعبي).

اللوحة ٦: معبد خربة الزيرقون (حوالي ٢٧٠٠ ق.م) (تصوير يوسف الزعبي)

اللوحة ٧: دمية من موقع باب الذراع (عن Bienkowski 1991: Fig. 71)

كذلك فإن التشابه في إحاطة المدن بأسوار، لها بوابات، ووجود المذابح المستديرة الشكل في المعابد (اللوحة ٦)، كما هو الحال في مواقع خربة الزيرقون، وباب الذراع، وخربة البتراوي، على الوحدة الحضارية في هذه الفترة أيضًا في الأردن.

ولا بد من الذكر أن الناس مارسوا أنواعًا متعددة من الفنون، وبخاصة صناعة الدمى، إذ عُثر على عدد كبير منها في معظم مواقع الفترة المؤرخة للفترة ٣١٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م.. وجاءت أفضل الأمثلة من موقعي خربة الزيرقون، وباب الذراع (اللوحة ٧).

ويرى الباحث أن ما يؤكد طابع المدينة في هذه المواقع التي كانت تحكمها سلطة، هو وجود مبانٍ إدارية خاصة بالحكام، كما هو الحال في موقعي الزيرقون وخربة البتراوي. ويجادل لورونز نيغرو (Nigro 2010) أنه تعرّف في الموقع على مبنى لقصر عثر بداخل غرفه على عدد من الأدوات المعدنية والجرار الفخارية وغيرها من الموجودات النادرة (اللوحتان ٨، ٩).

اللوحة ٨: صورة لمبنى القصر في موقع خربة البتراوي (بإذن من Lorenzo Nigro)

اللوحة ٩: موجودات غرف قصر خربة البتراوي (بإذن من Lorenzo Nigro)

لكن الوضع اختلف مع بداية المرحلة الرابعة (نحو ٢٤٠٠/٢٣٠٠ ق. م.)، إذ تحوّل الناس في معظم مناطق بلاد الشام من سكان مدن إلى رعاة وبدو؛ نتيجة لتدمير المدن لعوامل، ما تزال قيد الدراسة من قبل الباحثين؛ فمن العلماء من ذكر أن السبب في تدمير المدن هو تحولات مناخية، بينما يرى آخرون أن مناطق بلاد الشام تعرّضت لغزوات من قبائل بدوية وعلى رأسها الآموريون، وأضاف غيرهم أن غزوات المصريين القدماء على بلاد الشام، خلال حكم الدولة القديمة في مصر، هي السبب في هذا الانحدار الاقتصادي والتطورات الاجتماعية.

ج. دولة المدينة/ العصر البرونزي المتوسط (حوالي ٢٠٠٠ – ١٥٥٠ ق.م)

يعد العصر البرونزي المتوسط (نحو ٢٠٠٠ – ١٥٥٠) العصر الذهبي للحضارة الكنعانية كما شهد عودة النظام السياسي الذي ساد في العصر البرونزي المبكر وهو الدولة – المدينة؛ أي أن كل مدينة كانت تحكم نفسها بنفسها، ما تبعها من قرى زراعية صغيرة المساحة. ولقد جاءت المدن والمراكز الرئيسية محاطة بأسوار ولها بوابات، كما هو الحال في موقع إركيس الواقع على وادي العاجب بالقرب من بلدة الدفيانة بشمالي الأردن (Betts et al. 1996)(اللوحة ١٠).

كما كان هناك نظام تحصيني آخر يعرف باسم المنحدر الزلق «Glacis»، وكان هذا النظام يتكون من منحدر من التراب المرصوص، يُبنى في الجهة الخارجية للأسوار وينتهي بخندق، وعثر على أمثلة لهذا النظام الدفاعي في عدد من المواقع الأردنية، مثل، طبقة فحل (اللوحة ١١) (Smith and Potts 1992: 35, 40-44; Fig.7).

كما تميزت مدن العصر البرونزي المتوسط بغناها الذي يؤكده تنوّع المكتشفات الأثرية فيها. كذلك أتاح استخدام الكنعانيين –خلال هذه الفترة– لمعدن البرونز تطوير أنواع جديدة من الأسلحة والأدوات.

وإن سأل سائل عن هوية سكان الأردن خلال العصر البرونزي المتوسط، فان الإجابة لا بد أن تتطرق إلى أن منطقة بلاد الشام، عامة، لم تتمتع في يوم من الأيام

اللوحة ١٠: صورة جوية لموقع إركيس الذي يعود لبداية الألف الثاني قبل الميلاد (بإذن من Alison Betts).

اللوحة ١١: موقع طبقة فحل (Bewely and Kennedy 2004)

بالنقاء العرقي، إذ سكنتها مجموعة من الأعراق البشرية وتعرضت للهجرات طوال التاريخ. لكن تبعًا للمصادر التاريخية فإن الأردن كان يسكنه بشكل رئيس الكنعانيون والآموريون خلال هذه الفترة. وكان الكنعانيون هم سكان الحضر بينما الآموريون هم سكان البادية. وهذا يعطي دليلا واضحًا على أن صلة القرابة قد ارتبطت بين هاتين المجموعتين كما أنها لعبت دورا كبيرا في البناء الاجتماعي والسياسي عندهما. ويبدو أن القبائل الأمورية البدوية كانت مواليه لحكام المدن. ويؤكد على هذا الشكل من النظام السياسي ما ذكرته وثائق موقع تل الحريري (ماري) في سوريا من هذه الفترة، وما ينسحب على تل الحريري يمكن أن ينسحب على المواقع الأخرى. كذلك كانت منطقة جنوبي بلاد الشام على اتصال دائم

مع سكان مصر، وبخاصة سكان منطقة الدلتا. وأكبر دليل على هذا أن منطقة شرقي الدلتا المصرية قد خضعت خلال المراحل الأخيرة من العصر البرونزي المتوسط لحكم الهكسوس والذين يعتقد أنهم قدموا من بلاد الشام.

أسس الهكسوس مدينة «أفاريس» وتعرف أيضا باسم «تانيس» واتخذوها عاصمة لهم وحكموا مصر لمدة تزيد عن مئة عام. وعلى الرغم من أنهم تبنّوا عادات أهل مصر ودياناتهم، إلا إنهم ظلوا يُعدُّون غرباء على البلاد وغير مرغوب بهم! وعلى هذا الأساس، حاربهم مجموعة من فراعنة الأسرة السابعة عشرة حتى استطاع الفرعون أحمس الأول (نحو ١٥٧٠ –١٥٤٦ ق.م) القضاء عليهم بعد محاصرتهم في موقع يسمى «شاروهين»، بالقرب من غزة. وكشفت لنا المسوحات والحفريات الأثرية عن عدد من المواقع في الأردن والتي تؤرخ لهذه المرحلة، منها: طبقة فحل، وجبل القلعة في عمان. وإضافة للمباني السكنية واللقى الأثرية الأخرى، كشفت النقاب في موقع طبقة فحل عن معبد كبير أسس في العصر البرونزي المبكر، واستمر استخدامه بعد تطويره في هذه المرحلة. وللأسف، لا نستطيع أن نذكر أسماء الآلهة التي عبدت في هذه الفترة بالأردن لغياب الكتابة. كذلك نود القول إن مواقع أخرى في البادية الأردنية الشمالية مثل جاوه وإركيس تعد من أفضل الأمثلة على المدن المحاطة بأسوار لها بوابات. وعلى أية حال، فإن قلة المواقع والمكتشفات الأثرية لا تساعدنا في تسليط الأضواء على أي من المنجزات في هذه الفترة في الأردن.

د. دولة المدينة في العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠– ١٢٠٠ ق.م.)

من الواضح أن الكنعانيين بقوا العنصر السائد بين سكان بلاد الشام خلال العصر البرونزي المتأخر (نحو ١٥٥٠ – ١٢٠٠ ق.م)، وأن هذه الفترة تميزت بوجود علاقات دولية تعتمد على التجارة؛ ما أدى إلى دخول أعراق جديدة إلى هذه المنطقة، علما أن النظام السياسي (الدولة – المدينة) استمر في الوجود إلا إن منطقة – جنوبي بلاد الشام (الأردن وفلسطين) خضعتا للحكم المصري. وأدى طرد الهكسوس من مصر إلى تأسيس الدولة الحديثة فيهما، أو ما يعرف باسم فترة الإمبراطورية؛ إذ حكم خلالها فراعنة أقوياء مدوا نفوذ حكمهم خارج الحدود المصرية، ونفّذوا عدة حملات عسكرية على بلاد الشام.

فمثلا قام الفرعون تحتمس الثالث بتجريد ١٧ حملة على بلاد الشام، وخلّد انتصاراته، وسجل أسماء المواقع والأماكن التي غزاها في قوائم كتبت على جدران معبد الأقصر في مدينة الكرنك. وهدفت معظم هذه الحملات إلى إخضاع الثورات التي قام بها أمراء المدن ضد سلطة الفرعون المصري. ومن المعروف، أن أمراء المدن هؤلاء كانوا يتصارعون ضد بعضهم بعضًا. وتنص بعض رسائل تل العمارنة على طبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين المدن الكنعانية مع بعضها بعضًا ومع السلطة الحاكمة في مصر. وإحدى هذه الرسائل أرسلها أمير طبقة فحل إلى الحاكم المصري يطلب فيها العون ضد أحد أمراء المدن المجاورة. وتؤرخ هذه الرسالة لنحو ١٤٠٠ ق.م.، وتعد في نظرنا أقدم وثيقة سياسية خرجت من سلطة حاكمة في مدينة أردنية (Pritchard 1969: 486).

واستطاع الآثاريون العاملون في الأردن التعرف على عدد من المواقع لهذه الفترة، نذكر منها: تل زرعا/وادي العرب، تل أبو الخرز في غور الأردن، وتل إربد، وتل الفخار، وتل الحصن، وتل يعمون، والقويلبة، وعمان، وسحاب، وتل العميري، ومادبا. وتميزت هذه المدن بوجود مباني يمكن عدّها قصورًا (مثل ما عثر عليه في مواقع تل الفخار وتل العميري) والمعابد (مثل ما عثر عليه في ديرعلا وعمان وتل العميري).

وإضافة للمكتشفات الأثرية المحلية، فلقد عثر على آوانٍ فخارية مستوردة من قبرص، وبلاد اليونان، ومصر، وبلادٍ الرافدين. كما كُشف النقاب عن ألواح منقوشة بخط لا يزال غير مقروء في موقع تل دير علا (اللوحة ١٢) (Van der Kooij 2014: 157-178).

اللوحة ١٢: رقم طينية من تل دير علا لم يتفق العلماء على قراءتها بعد (تصوير يوسف الزعبي).

اللوحة ١٣: معبد طبقة فحل (تصوير يوسف الزعبي).

وذكرت السجلات والوثائق المصرية أن منطقة جنوبي الأردن سكنت من مجموعة بدوية تدعى «شاسو». ويمكننا القول إن سكان الأردن تشكّلوا خلال هذه المرحلة من سكان الحضر (المدن والأرياف)، والبدو الذين انتشروا فوق البادية الأردنية، كما هو الحال دائما.

تنوّعت العمارة في هذه الفترة، وتوزعت بين العمارة المدنية، والدينية، والتحصينات. وعثر على أمثلة متعددة منها في معظم مناطق الأردن، وبخاصة الأغوار، والمرتفعات الجبلية. فمثلًا عثر في موقع طبقة فحل على مبنى كبير، ربما كان لحاكم المدينة بلغت أبعاده ١٥م X ١٥م، وله ساحة رئيسة تحيط بها الغرف من الجهتين الجنوبية، والشمالية.

أما بخصوص المعابد في العصر البرونزي المتأخر، فقد عثر على عدد منها بعضها منعزل، أي غير مرتبط بمدينة أو بلدة، أو قرية، كما هو الحال في معابد مطار عمّان، والمبرك، وأم الدنانير (كفافي ٢٠٠٦: ٢٤٢-٢٤٥). وجاءت هذه المعابد مستطيلة أو مربعة الشكل ومبنية من حجارة كبير الحجم. كذلك تعرّف المنقبون في مواقع طبقة فحل (اللوحة ١٣)، وتل أبو الخرز، وتل دير علا على مباني وصفت بأنها معابد. ويعدّ معبد طبقة فحل من أضخمها وأهمها؛ إذ استخدم لفترة طويلة بدأت بالعصر البرونزي المبكر، واستمر حتى النصف الأول من الألف الأول ق. م. (Bouke 1999). وإضافة لهذا، كشفت الحفريات في موقع تل العميري/على طريق مطار الملكة علياء عن غرفة مستطيلة الشكل في جدارها الغربي حنية (كوة) نصب بداخلها حجارة تقف عموديًا؛ ما دعا المنقبون للاعتقاد بأنها معبد، وكشف في داخل هذه المعابد عن قطع أثرية ثمينة جدًا، بعضها مستورد من بلاد اليونان، ومصر.

لقد مارس الناس في الأردن فنونًا متعددة منها صناعة الدمى الآدمية، والحيوانية، والحلي والمجوهرات، والأختام، والأختام الاسطوانية. كما عثر على مسلات منحوتة في الحجر مثل، مسلة شيحان/ وحجر البالوع. ومن أجمل هذه القطع الفنية تلك التي عثر عليها في موقع تل السعيدية وكانت عبارة عن صحن من البرونز

بداخله علبة عطور مصنوعة من العاج على شكل سمكة. كما وجد في تل دير علا قالب لصناعة الحلي (اللوحة ١٤) (Kafafi 2021b).

من أهم ميزات فترة العصور البرونزية المبكرة والمتوسطة والمتأخرة في بلاد الشام، بشكل عام، والأردن، بشكل خاص، هو اتساع شبكة الاتصالات والطرق التجارية، التي تأسست عليها مجموعة من المراكز التجارية، شكّلت بدورها نقاط التقاء وتجمع للناس من مختلف البلدان والأعراق والأجناس؛ وبهذا نرى أن هذه الأماكن لم تكن أماكن للتبادل التجاري، وحسب، وإنما لتبادل الأفكار والخبرات.

ويمكن لأي دارس أن يرى هذا التبادل الفكري ينعكس في الطرز العمائرية، مثل: البيوت التي لها غرفة واسعة، والمعابد التي لها مذابح مبنية على شكل منصة مرتفعة ومستديرة الشكل، وقد عثر على عدد منها في مواقع خربة الزيرقون، وباب الذراع في الأردن، وتل المتسلم (مجدو) في منطقة سهل مرج ابن عامر في فلسطين. كذلك فإن بناء التحصينات المكونة من منحدرات زلقة في عدد كبير من مواقع بلاد الشام يدلل على التواصل الحضاري والفكري بين الناس.

كما تدلل مجموعات الأختام والأختام الأسطوانية التي عثر عليها في مواقع في الأردن، مثل: عمان، ودير علا، على التأثيرات الرافدية. ومن هنا، نستطيع القول إن مثل هذه البضائع تدلل على أفكار مشتركة ومتبادلة انعكست ليس فقط في منتجاتهم التجارية بل أيضًا في كيفية التعرف على ملكياتهم الخاصة.

ومع نهاية القرن الثالث عشر ق. م. حصل تغير شامل في بلاد الشرق الأدنى القديم، إذ انهارت الإمبراطوريات المصرية في مصر، والحثية في الأناضول، والكاشية في وسط وجنوبي بلاد الرافدين. وتعرضت منطقة بلاد الشام لهجرات جديدة، مثل هجرة قبائل شعوب البحر. ونتيجة لهذه الهجرات ظهرت على الساحة دول جديدة مثل الدول الآرامية في سوريا ولبنان. وهذا الأمر ينقلنا للحديث حول الفترة التالية وهي «العصر الحديدي»،

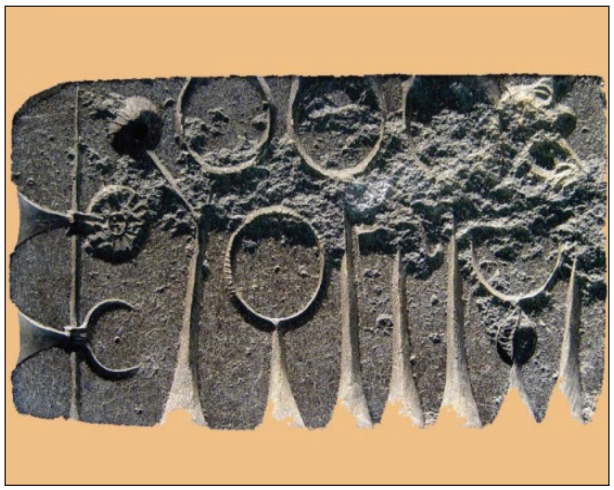

اللوحة ١٤: قالب لصناعة الحلي عثر عليه في دير علا (تصوير يوسف الزعبي).

والتي يمكن أن نطلق عليها اسم مرحلة «دولة الأمة».

الخاتمة

يشكل الأردن الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد الشام، ويحتل موقعًا متوسطًا بين بلادي النيل والرافدين. وإذا كان الناس في هاتين المنطقتين قد وصلوا لمرحلة التمدن، وبناء المدن، ومعرفة الكتابة في النصف الثاني من الألف الرابع ق. م.، فإن سكان الأردن في ذلك الوقت لم يكونوا بعيدين عن التحولات الحضارية فيهما. فقد أثبتت الدلائل الأثرية على وجود المدن في الأردن في المرحلة الزمنية نفسها التي وجدت بها في وادي الرافدين ووادي النيل، وإن لم تكن على السوية نفسها من التقدم كما كان الحال في مدن بلاد الرافدين والنيل، إذ إن الكتابة لم تعرف في الأردن خلال العصرين البرونزي المبكر والمتوسط. ومن هنا، لا بد من إعادة النظر بمواصفات المدينة والأخذ بعين الاعتبار أن البيئة والجغرافيا التي تأسست فيها المدن الأولى في الأردن تختلف عنها في حوض النيل، ودجلة، والفرات.

تميزت المرحلة الأولى من العصر البرونزي المبكر في الأردن بسيادة القرية؛ لكن، وعلى الرغم من هذا فقد تم التعرّف على بلدتين فيه، هما، جاوه في البادية الشمالية، وجبل المطوق في حوض نهر الزرقاء، تأسستا خلال هذه الفترة. وامتاز سكان هاتين البلدتين بالنضج

الحضاري بدلالة المخلفات الأثرية، وبخاصة المعمارية التي وجدت فيهما.

بدت بشائر التحوّل إلى المدنية خلال العصر البرونزي المبكر الثاني، لكنها لم تأخذ الصفة الكاملة للمدينة إلاّ في المرحلة الثالثة من العصر البرونزي المبكر، وقد توزعت على عدد من المناطق الجغرافية في الأردن، وبخاصة في الأغوار والمرتفعات الجبلية. ومن أهم هذه المدن التي وضعت لبناتها الأولى في العصر البرونزي المبكر الثاني، واستكملت مواصفات المدينة في العصر البرونزي المبكر الثالث (نحو ٢٧٠٠/٢٨٠٠ – ٢٤٠٠/٢٣٠٠ ق. م.) نذكر خربة الزيرقون، وخربة البتراوي. ومن أهم مواصفات هذه المدينة أنها كانت مُحصنّة ولها بوابات عامة، وبها معابد، ومباني إدارية؛ ما يدل على أنها تمتعت بوجود قيادة سياسية تدير شؤونها. لكن ما يغيب عن هذه المدن، مقارنة مع ما كان حاصلًا في بلاد الرافدين والنيل هو عدم وصول مجتمعاتها لمعرفة الكتابة، على الرغم من العثور على عدد من طبعات الأختام على شاكلة تلك التي سادت في بلاد الرافدين!

ويظهر أن نهاية الألف الثالث، أي خلال المرحلة الرابعة من العصر البرونزي المبكر (نحو ٢٤٠٠/٢٣٠٠ – ٢٠٠٠ ق. م.) قد شهدت تدميرًا لمدن العصر البرونزي المبكر الثالث، وتحولًا في طبيعة الحياة والانتقال إلى حياة الرعي والبداوة في كثير من الحالات. لكن هذا التحول لم يكن عامًا برأينا، بدلالة نتائج الحفريات الأثرية في موقع خربة إسكندر على وادي الواله جنوبي مدينة مادبا. وربما يكون هذا التحوّل ناتجًا عن تحولات مناخية، وغزوات القبائل الأمورية.

على أي حال، عادت الحياة المدنية في الأردن إمن جديد، وبخاصة مع بداية المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط (نحو ١٨٠٠ ق. م.)، وأفضل مثال عليها هو موقعي «إركيس» و«طبقة فحل» على التوالي. وتأثرت طبيعة المدن في هذه المرحلة بطابع المدن في وادي النيل، مثل تحصينها بواسطة المنحدر الزلق (Glacis). كما عثر على أوانٍ مصنوعة من المرمر، والجعلان المصرية وكلها تدل على العلاقات التي كانت قائمة بين الأردن ووادي النيل، في هذه المرحلة.

ومن المعلوم أنه وخلال العصر البرونزي الأخير (نحو ١٥٥٠ –١٢٠٠ ق. م.) خضعت بلاد الشام ومن ضمنها الأردن للحكم الفرعوني، وكان لهذا تأثير واضح على طبيعة المدينة؛ إذ وجد في بعضها مباني/ قصور بنيت لاستخدام المندوب السامي الفرعوني كما هو الحال في موقعي تل السعيدية وطبقة فحل (Kafafi 2008; 2007; 2002). لكن صفات المدينة في هذه المرحلة لم تختلف كثيرًا عنها في المرحلة السابقة من حيث تحصينها ووجود المباني الإدارية والعامة، مثل المعابد، فيها. لكن ما يميز هذه المدن هو علاقاتها القريبة والبعيدة؛إذ عثر فيها على أوانٍ فخارية مستوردة من قبرص ومايسينيا، ووجود حاكم يحكم فيها بدلالة الرسالة التي أرسلها أمير مدينة طبقة فحل المدعو «موت- بعلو» للفرعون المصري في الفترة بين نحو١٤٠٠ – ١٣٥٠ ق. م. (من ضمن الرسائل التي أرسلها حكام المدن ببلاد الشام وتعرف باسم «رسائل تل العمارنة») يطلب منه العون. وبرأينا أن هذه الرسالة مؤشر مهم على وجود نظام سياسي في الأردن كغيره من مناطق بلاد الشام يعرف باسم «دويلة المدينة».

وتشير الدلائل الأثرية الحالية إلى أن تركيز بناء المدن في الأردن خلال العصرين البرونزي المتوسط والأخير كان في شماله ووسطه، مع وجود مجموعات بشرية أخرى، لكنها أقل عددًا، كانت تعيش في جنوبه، كما هو الحال في هذه الأيام. ويجب أن لا يفهم من كلامنا هذا أن جنوبي الأردن كان خاليًا من المجتمعات المستقرة؛ بل اكتشفت دلائل حديثة على وجود تجمعات سكانية تعود لهذه الفترة في منطقة السماكية بالقرب من الكرك (Flohr et al. Forthcoming).

تغيّر حال الشرق الأدنى القديم نحو١٢٠٠ ق. م. بسبب تدمير الامبراطوريات المحيطة ببلاد الشام في ذلك الوقت، وهي، الفرعونية في بلاد النيل، والحثية

في وادي الأناضول، والكاشية في بلاد الرافدين، وكذلك دخول أقوام جديدة للمنطقة عن طريق الهجرات، وتبدل الحالة السياسية من نظام دولة المدينة إلى «دولة الأمة». كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى تغيّر في طبيعة المدينة من حيث ظهور أنظمة تحصينات جديدة، وتخطيط جديد للبيوت، في بلاد الشام، بالمجمل، وفي الأردن، بشكل خاص.

وفي الختام، يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الأردن بحدوده السياسية الحالية هو الجزء الجنوبي الشرقي لبلاد الشام الطبيعية، وما جرى على أرضه كان شاملًا لكل سوريا الطبيعية. علمًا أن حضارة منطقة الجزيرة الفراتية، أي شمال شرقي سوريا الحالية، هي في نظرنا امتداد لحضارة ما بين النهرين (دجلة والفرات)، خاصة في العصور البرونزية.

أ. د. زيدان عبدالكافي كفافي: رئيس جامعة اليرموك الأسبق، ١١٩٤١- الجبيهه، ص. ب. (٢٠١)، عمّان - الأردن zeidan.kafafi@gmail.com

المراجع:

أولًا: المراجع العربية

الديري، جهاد علي أحمد 1999؛ المدن في العصر البرونزي المبكر في الأردن. رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لقسم الآثار في معهد الآثار والأنثروبولوجيا بجامعة اليرموك.

كفافي، زيدان عبدالكافي 2011؛ **بلاد الشام في العصور القديمة من عصور ما قبل التاريخ حتى الاسكندر المكدوني**. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع.

كفافي، زيدان عبدالكافي 2006؛ **الأردن في العصور القديمة (العصور البرونزية والحديدية)**. عمّان: دار ورد للنشر والتوزيع.

كفافي، زيدان عبدالكافي 2005؛ **أصل الحضارات الأولى**. الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع.

ثانيًا: المراجع غير العربية

Adams, Matthew J. and Roux, Valentine (editors) 2022. «Transitions during the Early Bronze Age in the Levant. Methodological Problems and Interpretative Perspectives», **Ägypten und Altes Testament 109.** Münster: Zaphon.

Alvaris, Juan Ramon Muñiz and Polcaro, Andrea 2017. «Jabal Al-Mutawwaq Project (Zarqa, Jordan). September 2014», **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 58: 435-444.

Bar-Yosef, Ofer and Valla, François R. (eds.) 2013. «Natufian in the Levant Terminal Pleistocene Social Changes in Western Asia», **International Monographs in Prehistory. Archaeological Series 19.** Ann Arbor: Harvard University.

Betts, Alison V. G. (editor) 1998. «The Harra and Hamad. Excavations and Surveys in Eastern Jordan», Vol. 1**. Sheffield Archaeological Monographs 9.** Sheffield: Sheffield Academic Press.

Betts, Alison V. G. (editor) 1991**. Excavations at Jawa 1972-1986. Stratigraphy , Pottery and Other Finds**. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Betts, Alison V.G.; Eams, S.; Schroeder, M.; Rust, J. and McLaren, B. 1995. «Studies of Bronze Age Occupation in the Wadi al-'Ajib, Southern Hauran», **Levant** 28: 27-39.

Bewley, Robert and Kennedy, David 2004. **Ancient Jordan from the Air.** London: Council for British Research in the Levant.

Bienkowski, Piotor (ed.) 1991. **Treasures from an Ancient Land. The Art of Jordan**. Merseyside: National Museums & Galleries.

Bourke, S. J. 1999. «The New Pella Bronze Age Temple: The Largest:Migdol: Ever Found», **Occident and Orient. Newsletter of the German Protestant Institute**

of Archaeology in Amman, Vol. 4/1-2: 57-58.

Pascal Flohr, Bill Finlayson, Zeidan Kafafi, Elizabeth Gibbon, Laith Alshboul, Lily Graham-Stewart and Mohammad Tarawneh Forthcoming. «The Karak 'Neolithic' Survey: pilot season, October 2021», Submitted for publication in the **Annual of the Department of Antiquities of Jordan.**

Hanbury-Tenison, J.W. 1986. «The Late Chalcolithic to Early Bronze I Transition in Palestine and Transjordan», **BAR International Series**, 311.

Hanbury-Tenison, J.W. 1989. «Jabal Mutawwaq 1986». **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 33: 137-144.

Helms, S. W. 1987. «Jawa, Tell Um Hammad and the EBI/Chalcolithic Landscape», **Levant** *XIX:* 49-81.

Helms, S. W. 1984. «Excavations at Tell Umm Hammad esh-Sharqiya in the Jordan Valley, 1982», **Levant** *XVI:* 35-55.

Helms, S. 1981, **Jawa: Lost City of the Black Desert**. London: Methuen.

Helms, S. W. 1977. «Jawa, Excavations 1975: Third Preliminary Report», **Levant** IX*:* 21-36.

Helms, S. W. 1976. «Jawa, Excavations 1974- A preliminary Report», **Levant** *VIII:* 1-36.

Helms, S. W. 1975. «Jawa, 1973: a Preliminary Report», **Levant** *VII:* 20-39.

Ibrahim, Mo'awiyah and Mittmann, Siegfried 1994. «Excavations at Khirbet ez-Zeiraqoun», **Newsletter of the Institute of Archaeology and Anthropology , Yarmouk University** 16: 11-15.

Ibrahim, Moawiyah and Mittmann, Siegfried 1989. «Khirbet el-Zeiraqoun», Pp. 641-646. In: D. Homès-Fredricq and J. B. Hennessy (eds.), **Archaeology of Jordan 1/2. Field Reports, Sites L-Z. Akkadica Supplement VIII**. Leuven: Peeters.

Kafafi, Zeidan 2021a. «The Lower Jordan Valley, Southern Ghors and Wadi Arabah: A Case for Urban Life in the Third Millennium BC.», Pp. 111-127. In: Jesse C. Long and William G. Dever (eds.), **Transitions, Urbanism, and Collapse in the Bronze Age. Essays in the Honor of Suzanne Richard.** Shefield: eQuinox.

Kafafi, Zeidan 2021b. «The Invention of the Early Metal Industry in Jordan: An Archaeological Point of View», Pp. 223-229. In: Claudia Buehrig, Margarete van Ess, Iris Gerlach, Arnulf Hausleiter and Bernd Mueller-Neuhoff (eds.), **Klaenge der Archaeologie. Festschrift fuer Ricardo Eichmann.** Wiesbaden: Harraswitz Verlag.

Kafafi, Zeidan 2011. «Neither Early Bronze Age Cities nor States in the South of the Levant. Another Perspective», **Syria, Tome 88:** 47-57.

Kafafi, Zeidan 2008. «Characteristics of Late Bronze Age Canaanite Cities in Palestine», Pp. 39-56 . In: A. R. Al-Ansary, K. Al-Muaikel and A. Alsharekh (eds.), The City in the Arab World in Light of Archaeological Discoveries. Evolution and Development**. Proceeding of the Symposium: The City in the Arab World: Beginnings and Development 5-7 December 2005 in Al-Jouf- Kingdom of Saudi Arabia.** Riyadh: Abdul Rahman Al-Sudairy Foundation.

Kafafi, Zeidan 2007. «Late Bronze Age Settlement Patterns North of the az-Zarqa' River», Pp. 389 - 396. In: F. Khreiyshah et al (eds.), **Studies in the History and Archaeology of Jordan IX.** Amman: Department of Antiquities of Jordan.

Kafafi, Zeidan 2002. «Egyptian Governors' Residencies in Jordan and Palestine», Pp. 20 - 30. In: U. Hübner and E. A. Knauf (eds.), **Kein Land für sich allein. Studien zum Kulturkontakt in Kanaan, Israel/Palästina und Abirnâri für Manfred Weippert zum 65. Geburstag**. Freburg: Universitätsverlag Freiburg Schweiz.

Kerner, Susanne; Kühne, Hartmut; Czichon, R. and Kreppner, F. 2008. «The Transistion from the Late Chalcolithic to the Early Bronze Age», Pp. 155-166. In: the Proceeding of the 4th International Congress on the Archaeology of the Ancient Near East, Vol. 2. **Orient-Archäologie.** Leidorf.

Müller-Neuhof, Bernd 2020. «Defending the 'Land of the Devil': Prehistoric Hillforts in the Jawa Hinterland», Pp. 145-165. In: Peter M.M.G. Akkermanns (ed.), **Landscapes of Survival. The Archaeology and**

Epigraphy of Jordan's North-Eastern Desert and Beyond. Leiden: Sandstone Press.

Muñiz, Juan; Polcaro, Andrea and Alvarez, Valentín 2017. «Preliminary Results of the 2013, Campaign of excavations at the EBI site of Jabal al-Mutawwaq in the Middle Wadi az-Zarqa», **Annual of the department of antiquities of Jordan. Amman** 58: 423-434.

Muñiz, Juan; Polcaro, Andrea and Alvarez, Valentín 2016. . «New Spanish-Italian excavation at the Jabal al Mutawwaq Dolmen Field on the Middle Wadi Az-Zarqa': Preliminary results of the 2012 season», **Studies in the History and Archaeology of Jordan XII:** 477-488**.** Amman: Department of Antiquities of Jordan**.**

Nigro, Lorenzo with the contribution of Maura Sala 2010. «In the Palce of the Copper Axes, Khirbet al-Batrawy: the Discovery of a Forgotten City of the EBIII Millennium BC in Jordan. ROSAPA/Colour Monographs I. Rome: La Sapienza Expedition to Palestine and Jordan.

Nigro, Lorenzo (ed.) 2008. «Khirbet Al-Batrawy II. The EBII City- Gate, the EBII-III Fortifications, the EBII-III Temple. Preliminary Report of the Second (2006) and Third (2007) Seasons of Excavations», **Rome Studies on Archaeology of Palestine and Transjordan** 06. Rome: Universita di Rome La Sapienza.

Polcaro, Andrea and Muñiz, Juan Ramón 2017. «Jebel Mutawwaq, the mountain surrounded by water. The importance of water resources during the 4th. Millennium B.C. in the Transjordanian highlands», Pp. 15-28. In: Lorenzo Nigro; Michele Nuccioth and Elisabeth Galio (eds.), Precious Water. Paths of Jordanian Civilizations as seen in the Italian Archaeological Excavations. **Proceedings of the International Conference held in Amman, October 18th 2016. (ROSAPAT 12).** Rome: La Sapienza expedition to Palestine & Jordan.

Pritchard, James 1969. **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, 3rd edition.** Princeton: Princeton University Press.

Rast, W. E. 1981. «Patterns of Settlement at Bab edh-Dhra'», Pp. 7-34. In: W.E. Rast and R. T. Schaub (eds.), The Southern Dead Sea Plain Expedition: An Interim Report of the 1977 Season. **Annual of the American Schools of Oriental Research** 46. Cambridge M. A.: American Schools of Oriental Research.

Savage, S. H.; Falconer, S. E. and Harrison, T. P. 2007. «The Early Bronze Age City States of the Southern Levant. Neither Cities nor States», Pp. 285-297. In: T. E. Levy, P.M. Michele Daviau, R. W. Younker and M. Shaer (eds.), **Crossing Jordan. North American Contributions to the Archaeology of Jordan**. London: Equinox.

Smith, R. H. and Potts, T.F. 1992. «The Middle and Late Bronze Ages», Pp. 35-81. In: A.W. McNicoll (ed.), **Pella in Jordan II.** Sydney: University of Sydney.

Van der Kooij, Gerrit 2014. «Archaeological and Palaeographic Aspects of the Deir 'Alla Late Bronze Age Tablets», Pp. 157-179. In: Zeidan Kafafi and Muhammad Maraqten (eds.), A Pioneer of Arabia. Studies in the Archaeology and Epigraphy of the Levant and the Arabian Peninsula in Honour of Moawiyah Ibrahim. **ROSAPAT 10.** Rome: «La Sapienza» Expedition to Palestine and Jordan.

Velasco, Fernandez- Tresguerres Juan A. 2008. «The «Temple of the snakes: a sanctuary in the Early Bronze Age 1 in the village of Jabal Al-Mutawwaq (Jordan)». **Annual of the Department of Antiquities of Jordan** 52: 23-34.